الخيال العلمي ومحاولة قراءة الراهن في رواية «مجرد حلم»*

فانتازيا للراهن العربي انطلاقا من مشكلة السلطة وما يرتبط بها من خرق للديمقراطية وحقوق الإنسان

الحاكم العربي يتمتع بنفس الخصائص في أي زمان ومكان ليغدو أسطورة متجاوزة للزمان والمكان

بوشعيب الساوري**

قلّما اعتدنا أن نقرأ في أدبنا العربي الحديث والمعاصر بصفة عامة، والمغربي بصفة خاصة، رواية من نوع الخيال العلمي Science Fiction، ويمكن القول إن رواية مجرد حلم*** من النصوص القليلة في هذا الاتجاه الروائي المزدهر في الغرب.

أردت أن أشير إلى هذا الأمر لأُشيد بانفتاح الكاتب المغربي عبد الرحيم بهير على هذا النوع من الكتابة الروائية النادرة في أدبنا المغربي.

وقبل أن أدخل إلى الرواية لا بأس من تقديم تصور عام عن رواية الخيال العلمي، سأجعله مدخلا لقراءة هذه الرواية.

1. خصائص رواية الخيال العلمي

يمكننا أن نعرِّف الخيال العلمي بأنه الانتقال عبر آفاق الزمن، على أجنحة الحلم المشبعة بالمكتسبات والتطورات العلمية، فهو ذلك الفرع من الأدب الروائي الذي يعالج بطريقة خيالية تفاعل الإنسان مع كل تقدم في العلوم والتكنولوجيا. ويُعد نوعاً من قصص المغامرات، إلا أن أحداثه تدور عادة في المستقبل البعيد أو على كواكب غير كوكب الأرض، وفيه تجسيد لتأملات الإنسان في احتمالات وجود حياة أخرى في الأجرام السماوية، كما يصوِّر ما يمكن أن يُتوقع من أساليب حياة على وجه كوكبنا هذا، بعد تقدم بالغ في مستوى العلوم والتكنولوجيا. ولهذا النوع من الأدب القدرة على أن يكون قناعاً للهجاء السياسي من ناحية، وللتأمل في أسرار الحياة والإلهيات من ناحية أخرى.

ليس من الضروري أن تدور أحداثه على كواكب غير الأرض، بل يمكن أن تدور على الأرض نفسها. كما أن قدرته ليست مقصورة على أن تكون قناعاً للهجاء السياسي وللتأمل في أسرار الحياة والإلهيات فحسب، بل يمكن أن توظف لأغراض أخرى كالتأمل في المجتمع ومشاكله ورصد مفارقاته، كما هي حال الرواية التي نحن بصددها. وقد يتنبأ بأحداث أو مواقف أو مجتمعات محتملة في الحاضر أو المستقبل، في الأرض براً وبحراً وجواً، وفي الفضاء الخارجي، انطلاقاً من حقائق معروفة في الحاضر. فحين يبقى الخيال في حدود الممكن عقلياً لا تخرج القصة عن الواقعية، لأن وظيفة الخيال بالدرجة المتوسطة هي النظر إلى الحاضر المجهول والمستقبل القريب والبعيد من أجل توسيع الإدراك الحالي للقارئ4، ولا يتعلق الأمر باستيهامات فانطازية حالمة.

كما تندرج روايات الخيال العلمي في حقل الأدب لأن غايتها الأولى هي الإمتاع وليست علماً غايته المعرفة، ذلك أن كاتب هذه القصص لا يُقدِّم لمتلقيه كتاباً علمياً أو يوضح له نظريات علمية بغية تنمية معارفه، بل يقدم له رواية بقصد إمتاعه، ومن خلال هذا الإمتاع يزوِّده بمعارف علمية ونظرية بسيطة لا تغرق في التفاصيل العلمية التي قد تؤدي إلى ملل القارئ.

أما اللغة المستعملة في السرد والحوار فتتسم في قصص الخيال العلمي خاصة بالسمة العلمية، سواء أكان المراد هنا الألفاظ أم التراكيب أم المصطلحات. وهذه اللغة تكاد تتصف بالتشابه والتكرار من أجل ذلك5، وقد تتصف بالغرابة إن لم يكن القارئ يملك زاداً معرفيا منها، أو لم يكن المؤلِّف قادراً على توضيحها من خلال السياق.

التنبؤ بالمستقبل: غالبا ما يَطرُق كُتّاب روايات الخيال العلمي أبواب المستقبل بتنبؤاتهم دون زمن محدد فهو نظرة واسعة على العالم، يتداخل فيها خيال الكاتب مع الحقائق والنظريات العلمية الموجودة والمحتملة. ترسم أحداثاً تقع في المستقبل، أو في الماضي، تثير وتذهل القارئ. وذلك انطلاقاً من بعض التنبؤات التي يفترض العلماء حدوثها في المستقبل. فالتنبؤ مثلا بما سيصير إليه الطقس العام لكوكب الأرض لأيام قادمة ليس رجماً بالغيب، بل ينبع من علوم لها أصولها وتطبيقاتها وحساباتها ومعادلاتها6، لا يتعلق الأمر إلا باحتمالات، لكن بواسطتها يغدو التخييلي مرئيا.

الرحلة الخيالية: مهما يكن الأمر فإن قصص الخيال العلمي حريصة دائماً على الرحلة الخيالية، سواء أكان الحاضر زمناً لهذه الرحلة إلى العوالم المجهولة في الأرض والفضاء، أم كان المستقبل القريب أم البعيد زمناً لها. وهذا الحرص على الرحلة الخيالية يُعلي دائماً من شأن المكان في قصص الخيال العلمي، ويكاد يجعله بطلاً متمتِّعاً بالغرابة والبعد عن المألوف.

2. اشتغال الخيال العلمي في رواية «مجرد حلم»

يميز فرويد في الأحلام بين نوعين؛ نوع مرتبط باللاشعور ويتجسد في تلك الأحلام المبهمة التي تحقق رغبة مكبوتة، تعود إلى تجربة ماضية مرتبطة بالطفولة، ونوع له علاقة مباشرة بمشاغل اليومي.

تندرج أحلام هذه الرواية ضمن النوع الثاني، إذ تم دمج المشاغل اليومية للسارد في الخيال العلمي، وتم اتخاذ الحلم مطية انتقل عبرها السارد من كوابيس واقعه إلى واقع معادل له في الماضي والمستقبل. فاضطلع الحلم بوظيفة الربط بين واقع السارد المليء بالخيبات وآخر افتراضي بمثابة مرآة عاكسة له.

بفعل انشغال السارد بالشأن العربي الراهن وما راكمه من خيبات بدأت تتسلل إلى أحلامه مجموعة من الكوابيس، تقول إحدى الشخصيات مخاطبة السارد: «دماغك حاول استرجاع التاريخ كما قرأته في محاولة لتبرير وضعية اندمجت فيها، ربما تعاني منها لأنها أصبحت شغلك ومهمتك...»(ص109) والأحلام الثلاثة التي تؤسس الرواية صورة من تلك الكوابيس التي يعيشها السارد، تقول زوجته مخاطبة إياه: «حفظت تفاصيل أحلامك المملة عن السياسة.»(ص 156)

في أحد هذه الكوابيس يرى السارد أنه أصبح قبطانا في سفينة فضائية موجهة من الكوكب الأخضر (الذي اكتشفه الإنسان بعد أن دمر الأرض وأصبحت فيها الحياة مستحيلة وانتقل إليه سنة 2492م وتخلى عن شروره وأصبح يعيش في أمن وسلام) نحو الأرض بعد أن تكونت لدى الإنسان إرادة إعادة الحياة إلى الأرض وإنقاذها وتنقيتها من التلوث (ص133) وإعادة إعمارها، فكان السارد ضمن الوفد المبعوث إلى الأرض سنة 3230 من أجل تحقيق ذلك الهدف. ولقد بقي حاكم وحيد على الأرض متمسكا بها لقرون رافضا إصلاح ما تم تخريبه، عرف بجبروته وبطشه، يحاول السارد ومن معه من الوفد التفاوض مع ذلك المستبد فيجد السارد نفسه أمام مجتمع تسوده العبودية لرجل واحد (ص 148)، فينزاح السارد عن المهمة التي كانت موكولة إليه ويحاول دفع الناس إلى الثورة ضد ذلك الرئيس المستبد (ص 143ـ146)، لكنه فشل إلا مع التلاميذ الذين استجابوا لدعوته (ص 152)، وبذلك خرق المحذور فأدانه الرئيس وأمر بقتله، لكن السارد كان يحمل معه قنبلة على شكل قلم ستدمر كل شيء بما في ذلك نفسه(ص154)

يزاوج السارد، في هذا الحلم، بين المشاهد الحوارية والوصفية من خلال هذه الرحلة التي تتم من الكوكب الجديد إلى الأرض. ويؤدي الوصف هنا وظيفتين: يرصد التباين بين الكوكب الجديد والأرض، ويصف المتغيرات التي يمكن أن تحدث في هذا الكوكب في ارتباط بطريقة الحكم، وكذلك بلامبالاة الإنسان وأنانيته.

والسارد وهو متوجه إلى الأرض في رحلته تلك وفي غفوة يرى حلُمين:

الأول، يعود به إلى الوراء يقول ملخصا ذلك الحلم: «ولكن الغريب أنني حلُمت في البداية بأنني أرعى إبلا في الصحراء، ثم أصبحت أميرا على واحة كبيرة... النساء والجمال والسلطة إلخ...في العصور الأولى أي حوالي القرن السابع أو الثامن أو التاسع... لست أدري وربما قرونا طويلة حيث رأيتني أحصل على محلول سحري أطال عمري أنا وسيافي أو حارسي الشخصي.» (ص 159) يتم السرد بضمير المتكلم والذي يجسد ثقة زائدة في الذات وتضخم الأنا يتجلى ذلك في سلطة السارد، وسلطة الخليفة وتجبره وتلذذه بالحكم، كما تتخلله مشاهد وصفية للأجواء المحيطة بالحكم من قصر وحريم وبروتوكولات.

الثاني؛ يرى نفسه صحافيا يجري حوارا تلفزيونيا مع حاكم عربي يقول: «فلقد رأيتني في تلك (المنامة) أو الكابوس... أتحول إلى صحفي يجري حوارا تلفزيا في نهاية القرن العشرين.» (ص109). هيمن على هذا الحلم الحوار والأسلوب الحجاجي إذ عمل السارد على إرباك الرئيس المحاوَر وإحراجه، على شكل أسئلة مسنودة إلى أدلة دامغة وحجج، وسعي الرئيس إلى إبطالها، في صيغة حوار سقراطي قوامه التهكم والسخرية.

إشارات عامة

اعتمدت رواية «مجرد حلم» لغة شفافة بعيدة عن التلوينات البلاغية، لغة تحاول التقريب بين انشغالات السارد اليومية، والخيال العلمي، الذي اتخذته إطارا لمناقشتها، لكنها لا تغرق في التفاصيل والجزئيات العلمية الدقيقة، وإنما تكتفي بتقديم إشارات عامة خادمة للرؤيا الموجهة للكتابة، مثلا:

ـ الزمن: تنطلق كوابيس وأحلام السارد من سنة 3230، يقول السارد:«إننا نعيش في سنة 3230 ميلادية» (ص112) وتعود بنا إلى الوراء إلى العهود الإسلامية الأولى ابتداء من زمن الردة، يقول السارد:« ماتت أمي من فرط ألم ولادتي. لم أذق طعم حليبها الطاهر. أما أبي فقد هلَكَ في حرب الردة التي لم أستوعب سرَّها إلى اليوم.» (ص6) ثم تقودنا إلى نهاية القرن العشرين.

ـ خلود الحاكم العربي نتيجة الجمع بين مجموعة من الجينات لعدد من المستبدين الذين «اجمعوا على تكوين خلية واحدة مشتقة من خلية لكل واحد منهم، أي أن كل واحد ساهم بجينات محددة منه لإنتاج إنسان متكامل في نظرهم، وبوسائل علمية وبمساعدة باحثين أوجدوا نسخة آدمية أعطوها لسفيان، وزعموا أن أرواحهم الشريرة ستنتقل إلى جسده.»(ص126)

ـ تخريب الأرض، التحولات التي يمكن أن تحدث للعالم في المستقبل، كتدمير الأرض، يقول: « انظر كيف تحولت إلى خراب. أنظر إلى آثار مدن هائلة والتي شغلت مساحات شاسعة. المحيطات تحولت إلى ركام من الملح، الغابات وما احتوته من أشجار وشجيرات ونباتات وأزهار تحولت إلى رماد.»(ص126)

ـ الانتقال إلى كوكب جديد، يقول السارد: «ما معنى خروج الإنسان سليما من كوكب بعد أن دمره وقضى عليه بحروبه النووية؟ كيف تضافرت الأسباب والعوامل لينجو الإنسان من الهلاك؟ ثُم يهاجر إلى كوكب آخر؟ ما معنى كل هذا؟»(ص 127)

ـ الرحلة الخيالية، ففي الحلم الثاني هناك رحلة بدون قصد عبر الصحراء ستقود السارد إلى الحكم ومجد الكرسي ثم إلى الموت، وفي الحلم الثالث هناك رحلة من واحة عربية إلى أخرى من أجل إجراء حوار تلفزيوني مع قائد واحة عربية في القرن العشرين، أما في الحلم الأول فهناك رحلة من كوكب جنة عدن إلى الأرض، «بدأت الرحلة متعبة ولكنها رائعة لأننا كنا نطل عبر اللامتناهي، كنا نقطع مسافة خيالية. كل هذا بفضل ركوب الأشعة ما فوق الحمراء»، (ص117ـ118) تبعا للرؤيا الناظمة للرواية وهي تشخيص الراهن العربي، من خلال رصد مفارقاته انطلاقا من مشكلة الحكم، يتحرك السرد عبر رحلة خيالية إلى الوراء ثم إلى الأمام، معرجا على الراهن العربي، فالحلم الثاني يعود بنا على الماضي العربي، والحلم الثالث يركز على الراهن العربي، والحلم الأول يستشرف المستقبل، محاولا الإجابة عن الأسئلة التالية: كيف كانت السلطة عندنا؟ وكيف هي الآن؟ وكيف ستكون في المستقبل؟

ـ تمديد عمر الإنسان إلى عدة قرون بدون علامات الشيخوخة: « من كان يتخيل أن البشر سيصير مثلي ومثلك؟ شبابا دائما بلا تجاعيد، ولا شيب أبيض ولا ضعف ولا أمراض وراثية، ولا غير وراثية... بل حياة تتعدى ثلاثة قرون بالحساب الأرضي العتيق مع نهاية سعيدة، وموت رائع ورحيم، لأنه مبرمج سلفا ومعروف تاريخه.» (ص112ـ113).

ـ القدرة على متابعة ما يجري في ذهن الإنسان، يقول السارد على لسان الربان جاد: «عرفت انك تعاني من كابوس. أنبأني الجهاز فأضأت الشاشة لأتفرج على بعض مشاهد من دماغك...» (ص108)

مما أبعد الرواية نسبياً عن الملل الذي قد يحدث نتيجة الإغراق في التفاصيل العلمية ومنحها جاذبية للقراءة.

كما يتسم الخيال العلمي في الرواية بالتدرج، مع مراعاة الفترة التاريخية المتحدث عنها، فإذا كان في الحلم الثاني قد أشار إلى ترياق يطيل العمر وهو عبارة عن محلول أعشاب، فإنه في الحلم الثالث المرتبط بنهاية القرن العشرين، يتحدث عن الاستنساخ البشري، أما في الحلم الأول فهناك حضور مذهل للخيال العلمي، بتقديم بعض الاكتشافات العلمية التي تدخل في حدود الممكن، أهمها انتقال الناس إلى كوكب آخر بعد أن دمروا الأرض، يقول السارد: «خرج المكتشفون يبحثون عن كوكب شبيه بالأرض، خارج النظام الشمسي إلى أن تم اكتشاف كوكب جنة عدن، حيث يعيش اليوم سعيدا وبعيدا عن الاستبداد والحكم الفردي والحروب العقائدية أو الحضارية... » (ص 120ـ121).

نلاحظ أن عبد الرحيم بهير اتخذ الخيال العلمي دعامة خادمة للرؤيا الإبداعية البانية لروايته، وهي نقد الذات الجماعية وتشخيص الراهن العربي بخيباته وهزائمه المتواصلة. وبذلك تندرج روايته في مجال الهجاء السياسي الذي يُعد من أهم مقومات أدب الخيال العلمي، انطلاقا من مشكلة الحكم، تلك المشكلة التي لم يستطع العرب الحسم فيها طيلة أربعة عشر قرنا.

كما كان هذا التأطير الاستشرافي للمستقبل فرصة لمناقشة بعض القضايا الراهنة كالحروب العقائدية، الإسلام السياسي، الحداثة، الديمقراطية، تلوث البيئة، وإثارة بعض الأسئلة المحرجة: «هذه أزمتنا ومصيبتنا هل نرفض الحضارة الحديثة لمركب نقص فينا؟ أم لأننا لم نستطع مسايرة عصر التكنولوجيا؟ لماذا لا نبني بدل أن ندمر؟ لماذا لا نتطور كباقي خلق الله؟ ولماذا ولماذا؟» (ص 102).

أدوار الخيال العلمي

يضطلع الخيال العلمي بعدة أدوار في الرواية:

ـ أرضية لمناقشة بعض قضايا الراهن العربي، انطلاقا من الهزائم المتوالية للإنسان العربي، من خلال مشكلة السلطة والديمقراطية وحقوق الإنسان.

ـ يقدم قراءة تشخيصية للحاضر بخيباته ومساوئه الواقعية والمحتملة بالعودة إلى الماضي واستشراف المستقبل.

ـ تقديم نظرة حول شكل السلطة في الوطن العربي في المستقبل.

ـ كما يسهم في بناء شخصية نمطية للحاكم العربي تتسم بالخلود والأبدية لا تتغير ولا تتبدل رغم تغير الزمان والمكان، ليغدو أسطورة.

3. من نقد الواقع إلى أسطورة الكرسي

تدخل هذه الرواية ضمن تيار نقد الذات والسخرية منها، انطلاقاً من مشكلة السلطة وحساباتها وغوايتها والتمسك بها، ونقد بعض القيم التي تصاحبها والأقنعة التي تتلبس بها، يقول السارد في الحلم الثاني:«رسمت فوق جبهتي أثر السجود وصبغت لحيتي بطلاء عجيب. فعلت كما أفعل في المناسبات الدينية عندما أتوجه للصلاة في المسجد. » (ص41) وغياب حرية التعبير والتمسك بالسلطة في نبرة ساخرة يقول السارد: «السياسة حرم خليفة المسلمين. فرددوا معي أكثر من مرة ثم أقسموا اليمين على الالتزام بأوامري واحترامها وإشاعتها والدعاية لها لدى عامة المسلمين في كل مكان وفي أي زمان إلى أن يرث الأرض ومن عليها، لتظل السياسة محرمة على عامة المسلمين» (ص47) إنها نظرة ساخرة للتاريخ العربي بكل مساوئه السياسية وما شابه من صراع حول السلطة، تاريخ الاغتيالات، قراءة في التاريخ العربي قديمه ومعاصره بتقديم نماذج من التاريخ العربي كملوك الطوائف، هارون الرشيد. والإشارة إلى بعض التناقضات التي يعيشها الإنسان العربي، يقول الحاكم العربي المستبد المحاوَر في الحلم الثالث من الرواية: «الثورة من صلب الشعب، كل أفراد الشعب. لذا يجب أن نجد مصطلحا يفيد بأن الحكم هو للشعب. أي الشعب سيد نفسه» (ص76) ويقول كذلك: «لا أريد هذه اللغة الأعجمية وهي لا تفيدنا بشيء ونحن شعب لا يؤمن بهذه الديمقراطية الغربية». (ص76) ويقول مرة أخرى معبرا عن موقفه من الديمقراطية: «كيف نؤمن بالديمقراطية؟ إنها مصطلح غربي كافر ولا يقبله الإسلام وهو أجوف لا معنى له» (ص6) تحاول الرواية، إذن، رصد مفارقات السلطة وتبعاتها في التاريخ العربي، وبعض المواقف المتحجرة من الديمقراطية وغيرها.

إنها صور فانتازيا للراهن العربي انطلاقا من مشكلة السلطة وما يرتبط بها من خرق للديمقراطية وحقوق الإنسان.

تحاول الرواية تأكيد أمر مهم وهو أن مشكلة السلطة وطريقة الحكم لن تتغير لدى العرب وستظل على حالها في المستقبل على الرغم من كل التحولات التي يمكن أن تحدث في العالم. وكأن الأمر يتعلق بقصة واحدة تتكرر عبر الزمن في الماضي والحاضر والمستقبل. وتتجلى صور ذلك في التمسك بالكرسي رغم كل الظروف، يقول السارد في الحلم الأول:"لأنه خائف من ثورة ضده وأكثر من هذا وذاك أنه يعتبر نفسه غير عادي، ويجب أن يظل الوضع على حاله، الناس هائمون، تائهون، صم، بكم لا يقشعون...واجبهم الطاعة والعبادة ويمكث هو على كرسي الحكم والاستبداد إلى ما لا نهاية». (ص 125) ليغدو الأمر بمثابة أسطورة.

يُسهم الحلم في تداخل الخيال والواقع فيعكسه، ويغدو الأول صورة ممكنة للثاني تُقدم أزماته وصيرورته الدرامية المعقدة، في قالب افتراضي، توجهه نزعة تشاؤمية من الراهن العربي، على شكل تنبؤ بالصورة التي سيكون عليها الحكم في العالم العربي. ويحضر الواقع بقوة من خلال القضايا المطروحة للنقاش في الحلمي والواقع الافتراضي الذي يخلقه الخيال العلمي. يقول السارد بعد استيقاظه من كوابيسه:"ضغطت على زر التحكم عن بعد. أضاءت شاشة التلفزيون فلاحت ـ ربما بالصدفة ـ صورة رئيس جمهورية عربية وهو يلقي خطابه على جوقة من البؤساء كما حصل في أحلامي الغريبة)». (ص 156)

نلمس نوعا من التداخل بين سفيان في الحلم الثاني والرئيس الذي ذهب الصحافي إلى محاورته في الحلم الثالث وكذلك القائد الذي سيتفاوض معه السارد المبعوث ضمن وفد من الفضاء بشأن إنقاذ الأرض في الحلم الأول. فهم يحملون نفس الاسم، سفيان بن سفيان، ويتمتعون بنفس الخصائص. يقول السارد في الحلم الثالث: «أخذت الصورة تتراءى لي من بعيد... كل ما في هذا القصر شاهدته وعشت فيه... ومسرور هو حارسي الشخصي وسيافي... هنا عشت قرونا طويلة...» (ص 106). يوحي هذا التطابق في الأسماء سفيان بن سفيان بالتماهي بين الشخصيات وبأن الحاكم العربي يتمتع بنفس الخصائص في أي زمان ومكان. يظهر ذلك التماهي المرآوي من خلال ما يلي:

ـ تماهي الرئيس والخليفة في الأحلام الثلاثة والتمتع بنفس الخصائص، مما يكرس خصائص أبدية للحكم في الوطن العربي.

ـ تكرار نفس التعاملات والبرتوكولات التي تحيط بالرئيس والخليفة، في الماضي والحاضر والمستقبل.

ـ الأجواء المحيطة بالحاكم تظل على حالها: القصر، الأثاث، الجواري، الحرس، الحارس مسرور: «هذا الرجل أعرفه...» (ص130)

كل ذلك يؤكد الاستمرارية والثبات، ثبات طريقة الحكم عند العرب على الرغم من مرور قرون عديدة. يتعلق الأمر بأسطورة الحاكم العربي الكل يتغير حوله وهو لا يتغير يتمسك بكرسيه وبطقوسه في الماضي والحاضر والمستقبل.

تبعا لهذه الرؤيا الحاكمة للرواية يبدو لي أن الخيال العلمي في رواية «مجرد حلم» هو إطار يقدم فيه الكاتب وجهة نظره من مشكلة الحكم والديمقرطية في عالمنا العربي.

أسطورة الكرسي

تبعا للرؤيا الناظمة للرواية يمكن أن نشير إلى أن الأمر يتجاوز النقد والانتقاد والرفض إلى خلق أسطورة وهي أسطورة الكرسي، انطلاقاً من العلاقة الحميمية التي تربط الحاكم العربي بالكرسي وتمسكه الجنوني به، ورفض التخلي عنه، في الأحلام الثلاثة، يقول الحاكم العربي:«أنا هو الكرسي وهو أنا لا ولن نفترق أبدا...منه أستمد قوتي وجبروتي وشبابي وحيويتي، في هذا الكرسي كل سحري وجنوني، أنا سفيان بن قحطان الولهان بالكرسي، العاشق للسلطة، أنا قيس الكرسي...» (ص 153) مما يكرس الثبات والخلود والأبدية، تقول إحدى جواري الحاكم سفيان بن سفيان: «أنا لم أمت ولن أموت أبدا... أنا جارية مولاي الحاكم العربي، شربت على يديه محلول إكسير الحياة...أنا مؤنسة مولاي، وصاحبته وحبيبته وجاريته ومطربته الخالدة...» (ص 146) كما أن المكان يظل كما هو بكل طقوسه وبروتوكولاته، يقول السارد: «هذا المكان أعرفه. أرضيته من مرمر، أبوابه من ذهب، وفضة، أعمدة من ذهب سقوف من ذهب أحمر...» (ص 130) فعلى الرغم من التحولات الكبيرة التي عرفها كوكب الأرض، وهجرة سكانه إلا أن الوضع في العالم العربي الذي يستعير له الكاتب اسم الواحة يظل على حاله، يقول السارد على لسان الحاكم العربي: «اقرأ تاريخنا لن تجد حاكما عربيا تنازل عن الكرسي أبدا وأتحداك...» (ص 135) على الرغم من تغير نظام الحكم في الكوكب الجديد، يقول: «القانون هكذا عندنا... المجلس مكون من عدد من المسؤولين انتخبوا بطرق ديمقراطية ويعملون بلا مقابل. هدفهم المصلحة العامة للوطن» (ص 132) فإن القائد ظل متمسكا بتقاليد الحكم المتوارثة. يؤكد ذلك تماهي الخليفة في الحلم الثاني مع الرئيس في نهاية القرن العشرين ومع حاكم الواحة في القرن الميلادي الثالث والثلاثين. يوحي ذلك بأن الحاكم العربي يتمتع بنفس الخصائص في أي زمان ومكان، ليغدو أسطورة متجاوزة للزمان والمكان.

تركيب

تحقق رواية «مجرد حلم» مطلبين:

أولهما؛ إمتاع القارئ عبر ثلاثة أحلام تُجاوِر بين الحاضر والماضي والمستقبل، وثانيهما، محاولة قراءة الراهن العربي انطلاقا من مشكلة التمسك بالسلطة والديمقراطية وحقوق الإنسان والتعايش بين الشعوب والحضارات وغيرها، بنبرة لا تخلو من سخرية. وبهذين المطلبين تنسجم الرواية مع روح رواية الخيال العلمي التي تراهن على إمتاع القارئ وتشويقه مع اتخاذ موقف من بعض القضايا السياسية والظواهر الاجتماعية.

---

* ألقيت هذه الورقة بندوة الخيال العلمي في الأدب العربي التي نظمها مختبر السرديات بكلية الآداب ابن مسيك الدار البيضاء، وذلك يوم 25 نيسان (ابريل) 2006.

** كاتب من المغرب

*** عبد الرحيم بهير، مجرد حلم، دار الثقافة، الدار البيضاء، 2004

سقط سهوا في شهادة عيسى الشاوي:

التالي: فذهب الضابطان الى المسيب، وهناك التقيا بالمرحوم احمد حسن البكر، وحينما رأياه سألهما من ارسلكما؟ قالا عيسى، فقال: اذهبا فكل شيء مرتب هنا (اي صرفهما ـ الكاتب)، فاقتضى التنويه.